النكبة بين التعليم والتأريخ

تجربة تحولت من ذاكرة مختزنة إلى صيرورة عمل

باسمة صواف

تجربة بين معلمتين في مدرستين مختلفتين: باسمة صواف، معلمة في مدرسة «بنات الماجدة وسيلة» في بلدة بيرزيت، وأمل قطاوي، معلمة في مدرسة «بنات راهبات الوردية» في بيت حنينا.

تقوم التجربة على تعليم تكاملي، تفاعلي، يعمل على تحويل شهادات الأجداد إلى «فيلم وثائقي»، يتفاعل فيه الأحفاد (الجيل الرابع) مع الأجداد زمانياً ومكانياً عبر الحوار والتخيل، لتنبثق رؤية مستقبلية للأحفاد تقوم على تغيرات نفسية وفكرية، تعيد إنتاج الماضي إلى رؤية مستقبلية تستند إلى التاريخ ولا تقع في أسره. وتتضمن التجربة عرض فيلم وثائقي من عمل الطالبات، وتعليق من قبلهن عن تجربتهن في جمع المادة وإنتاجها.

«إن مجرد الإحساس بالواقع دون القدرة على نقده لا يؤدي إلى التغيير المطلوب؛ لسبب بسيط، هو أن مثل هذا الإحساس لا يكون صادقاً؛ لأنه في حقيقته مجرد رؤية ذاتية تضحي بالحقيقة الموضوعية، وتخلق لها بديلاً كاذباً». [1]

لذا، حاولت بناء أرقي على مدار سنوات عدة من كوني لاجئة ضمن مشروع تعليمي تعلمي، تحاكي فيه الطالبات ذاكرة تمتد عبر تاريخ اختزنه المكان، لتتماهى -الطالبات- مع اللحظات المسرودة عبر عمليتي التأمل والتخيل؛ تأمل ذاكرة امتدت عبر شقوق الحلم، وحطام السنين، ومرارة الترحال. وتخيل محكوم بلحظات الأرق والألم، فتستشعر الطالبات بعظمة الذاكرة التي أبت إلا أن تبقى راسخة، متجذّرة، ممتدة إلى أجيال متعاقبة، لتصل إلى هذا الجيل، فيستَجذل هؤلاء، ويمدون يداً جَذلى تقوم على صيرورة ذاكرة من قاعدة اختزان وانتظار، إلى قاعدة مرور إلى ما هو منتَظَر، ليتسع إدراكهم على ماهية النكبة، وتداعياتها.

فكانت البداية، بداية مساق خرج بعد ولادات عدة، قمت بتطبيقه على مدار سنتين في مدرستين مختلفتين أنا وزميلتي أمل، وكان نضوج المساق تتويجاً لمسار تلك السنتين اللتين أنتجتا خبرات عدة لدى الطالبات، حيث استطعن أن يَمْتَحن من مورد

التاريخ وتوظيفه في سياقات تتلاءم واللغة العربية، من خلال الكتابة، وتقمص الشخصيات، وعمل كتيب، وفيلم وثائقي تدعمه كتابات الطالبات، وصور عن النكبة واللجوء،[2] إلى أن تم نضوج الفكرة، وتغلغلها ضمن حكاية جيل تعيش في عميق حكاية الأجداد، فكان الفيلم الوثائقي، وكانت خبرات تبادلية نضجت بفعل تفاعلاتي مع الطالبات، ولقاءات عدة مع الباحث مالك الريماوي، مع انبثاق فكرة ثانية، وهي عمل كتيّب توثق فيه الطالبات ذاكرة الأجداد.

دأبت الطالبات على البحث، البحث عن هُوية: هُوية ذاكرة، وهُوية مكان، وهُوية وطن سُلب، وأجداد انتُزعوا قسراً، فجاء المشروع ليمثل أمام ذاكرة أثبتت عبر مرور الزمن عدم تآكلها، فقام بترسيخها بالصوت والصورة.

تمكنت الطالبات بعد عملية بحث طويلة من إجراء مقابلات مع اللاجئين واللاجئات، وبخاصة وأن أغلبهن لاجئات.

أجريتُ نقاشات عدة مع الطالبات بعد إجراء المقابلات، عن شعورهن، وعمّا لاحظنه في حديث اللاجئين واللاجئات، فكان أكثر ما لفت انتباههن أن اللاجئين قد هاجروا بفعل الإشاعات، والخوف على العِرض، فكان خروجهم عَنوة، حتى إن إحدى الطالبات قالت: «كنت أتخيل الرحيل، شعرت بأني في ذاك الزمن، أشعر بهم وبآلامهم».

كما استأنست الطالبات بحديث اللاجئات عن التراث، والمكان، «فتأثير المكان في نفسية الشخصيات غالباً ما يكون أعمق من التأثير في الجسد، وذلك لما تمتاز به النفس الإنسانية من إحساس مرهف، فأكثر الأمور بساطة تطبع في النفس علاقة يصعب محوها حتى مع مرور الزمن».[3]

كان لا بدّ من قراءة مساق النكبة من منظور الطالبات، مستفيدات من المادة التي بين أيديهن، لذا قمن بنشاطات عدة، منها:

1. عمل سكيتش عن النكبة واللجوء.
2. رسمت بعض الطالبات اللجوء، معتمدة على ما قاله اللاجئون، فقمن برسم القرى قبل اللجوء، وأيضاً رسمت طالبة عروساً فلسطينية تحمل بيديها الشموع من خلال وصف اللاجئة «أم أسامة» من بيت نبالا.
3. تقمصت الطالبات دور القرى، ووصفت مشاعرها أثناء هجرة أبنائها منها.

استُقبلت طالبات «مدرسة الماجدة وسيلة» بحفاوة في مركز القطان، الذي لم يتوانَ عن تقديم الدعم المعنوي والمادي لهن، حيث خرجت الطالبات بانطباعات إيجابية عن المركز، وبانشراح كبير، لأنهن سيقمن بعمل «فيلم وثائقي» عن النكبة، بعد حوار دار بينهن وبين الباحث مالك الريماوي. فكان التحدي، تحدياً لسنة دراسية جديدة تقع على مفترق مرحلتين، ألا وهي الثانوية العامة.

وعلى الرغم من انسحاب بعض الطالبات من المشروع بسبب ضغوطات السنة الدراسية، (الثانوية العامة)، دأبت بقية الطالبات على الارتقاء بالمشروع نحو الأمام.

انخرطت أنا وزميلتي أمل في عمل مشترك لإتمام الفيلم، فتعاونّا معاً على إكماله، وشعرنا بالمسؤولية، قمنا بالاطلاع على أفلام وثائقية عدة، وكتبنا ملاحظاتنا، جراء نقاشات عدة، كنا نتفق ونختلف، ونلتقي بشكل دوري مع الطالبات، نحاورهن، فتنبثق الفكرة، ويتم البناء عليها، حيث اعتمدنا كثيراً على نتاج أفكارهن، فهذا الفيلم لهن، وإليهن، ومنهن، تماهت فيه الطالبات وتحاورت مع جيل النكبة، لتَنْبُتَ مشاعر وأفكار جديدة بينهم، «فالوعي المعمّق بالموقف يؤدي بالإنسان إلى أن يتفهم حقيقة الأحداث التاريخية، وقابليتها للتغيير وللتطوير».[4]

أثناء التصوير، كنا نركز الوعي لنلاحظ كل شيء ونستثمره:

- النصوص التي تنتجها الطالبات.
- حركتهن.
- ونتاج عملهن على الحاسوب.

وكم كان الوقوف أمام الكاميرا صعباً لدى الطالبات، فقمت أنا وزميلتي في أدوار عدة منها: الملاحظ، والمخرج، وبخاصة عند إعادة تصوير بعض المشاهد. لذا، أشكر طالباتي جزيل الشكر على صبرهن والتزامهن، كما أشكر عامر حسن الذي لم يتوانَ لحظة عن تقديم المساعدة لنا.

وهذا العمل الجديد، أقول جديداً؛ لأنه أخذني أنا وزميلتي في أدوار جديدة، واهتمامات أخرى، فمن تطبيق مساقات، إلى إنشاء فيلم وثائقي، ما جعلنا نلاحظ كل شيء، تعلمنا مع الطالبات كيف نبني حكايتنا ضمن حكاية الآخرين (الأجداد)، وكيف نخلق تواصلاً عاطفياً وفكرياً بين جيلين، بينهما مسافة زمنية، فمرورنا معاً في مثل هذه التجربة خلق لدينا ولديهن الكثير، ولن أتحدث عن هذا الموضوع لأني سأتركه لهن للحديث عنه، كما ازدادت تقديراتنا لصعوبات المواقف المختلفة، وبخاصة أثناء التصوير.

إضافة إلى ما ذُكر، فإن هذا العمل أوجد صيرورة في علاقتي مع طالباتي، حيث أصبحن قريبات مني، وأصبح هناك تواصل بيني وبين أمهاتهن، فخُلقت لديّ مشاعر لذيذة تجاههن، عملت على كسر العلاقة التقليدية بين المعلمة وطالباتها.

ما قامت به طالباتي، ما هو إلا حصر الجمان الذي سكن ولا يزال يسكن ذاكرة الأجداد، أقول جماناً؛ لأنه ذو قيمة، ففيه إثبات لهويتنا، لحقنا التاريخي، لذا قامت الطالبات بلثم الجمان، ومعانقته، وبناء حكايتها عبر حكاية الأجداد، حكاية جيل حاضر برؤية مستقبلية ما كانت لتكتمل لولا حضور الذاكرة، وانزياح شوائبها، لتغدو الحقيقة واضحة، فيبرق الأمل، ويحطم أغلال

الماضي، ليأتي السؤال، ويتحول إلى قرار، لا نريد مزيداً من البكاء، لا نريد للأحلام المنكسرة أن تبقى رهينة الذكريات، فجاءت الرؤيا متوجة بإنتاج هذا «الفيلم الوثائقي».

«فلا يكفي أن نرى أنفسنا كما يراها الآخرون، بل إن من المهم أيضاً وبالدرجة نفسها أن نرى الحقيقة الخارجية كما يراها الآخرون، وبتعبير أدق، أن نفهم كيف، ولماذا، يرى الآخرون الحقيقة كما يرونها، وليس هذا بالأمر السهل، ولكنه مهم جداً، إذا نحن أردنا أن يحل التفاهم محل سوء التفاهم».[5]

باسمة صواف
مدرسة الماجدة وسيلة – رام الله

الهوامش

[1] باولو فاريري (2005). **التربية للمقهورين والطريق للتحرير**، إعداد وتحرير: رباح حلبي، ط1، (د. م. ن): معهد الدراسات–مدرسة السلام، ص: 46.
[2] لمعرفة المزيد، يمكن الرجوع إلى مجلة **رؤى تربوية** عدد 27.
[3] أسماء شاهين (2001). **جماليات المكان في روايات حبرا إبراهيم جبرا**، ط1، الأردن: دار فارس، ص: 118.
[4] فريري، مصدر سبق ذكره، ص: 79.
[5] أوتو كلينبرغ (1967). **علم النفس الاجتماعي**، ترجمة: حافظ الجمالي، ط1، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص: 318.

المراجع

> شاهين، أسماء (2001). **جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا**، ط1، الأردن: دار فارس.
> فاريري، باولو (2005). **التربية للمقهورين والطريق للتحرير**، إعداد وتحرير: رباح حلبي، ط1، (د. م. ن.): معهد الدراسات–مدرسة السلام.
> كلينبرغ، أوتو (1967). **علم النفس الاجتماعي**، ترجمة: حافظ الجمالي، ط1، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.